مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(٢ كورنثوس ٦:١٦–١٨؛ ١:٧)

يا إخوةُ أنتمُ هيكلَ الله الحيِّ كما قالَ اللهُ إني سأسكُنُ فيهم وأسيرُ فيما بينَهم وأكونُ لهم إلهًا وهُم يكونونَ لي شعبًا* فلذلكَ اخرُجوا من بينِهم واعتَزِلوا يقولُ الربُّ ولا تَمَسُّوا نَجِسًا* فأقبلَكُم وأكونُ لكم أبًا وتكونونَ أنتمُ لي بنينَ وبناتٍ يقولُ الربُّ القدير* وإذ لنا هذه المواعِدُ أيُّها الأحبَّاءُ فلنُطَهِّرْ أنفُسَنا من كلِّ أدناسِ الجسَدِ والروحِ ونكمِّلِ القداسةَ بمخافَةِ الله.

الإنجيل

(متى ١٥:٢١–٢٨)

في ذلك الزمانِ خرجَ يسوعُ إلى نواحي صورَ وصيدا وإذا بامرأةٍ كنعانيَّةٍ قد خرجتْ من تلك التُخومِ وصرختْ إليهِ قائلةً إرحمني يا ربُّ يا ابن داود فإنَّ ابنتي بها شيطانٌ يعذِّبُها جدًا* فلم يُجِبْها

العدد ٧/٢٠٠٥

الأحد ١٣ شباط

تذكار أبينا البار مرتنيانوس

اللحن الرابع

إنجيل السَحَر الرابع

الطاهر والنجس في الكتاب المقدس

«وهذا تأكلونَهُ مِن جميعِ ما في المياهِ. كلُّ ما ليسَ لهُ زعانِفُ وحَرشَفٌ في البحارِ وفي الأنهارِ مِن كلِّ دَبيبٍ في المياهِ ومِن كلِّ نَفْسٍ حيَّةٍ في المياهِ فهوَ مكروهٌ لكُمْ ومكروهًا يكونُ لكُمْ. من لحمِهِ لا تأكلوا وجثَّتَهُ تكرَهون» (لاو ١١:٩–١١). هذا مثال عن مئات من أحكام الطهارة والنجاسة التي وردت في العهد القديم، ولاسيّما في كتاب اللاويين. والمعروف أن هذه الأحكام تختصّ بكلّ جانب من جوانب حياة الإنسان اليومية، كالمأكل والمشرب والولادة والموت والحياة الجنسيّة، مُحاولة توجيه البشر إلى نوع من الطهارة لا على مستوى السلوك الخلقيّ، بل في نطاق الحاجات الاعتيادية. والحقّ أن أحكام العهد القديم في ما يختصّ بالطاهر والنجس كثيرًا ما تحدو بالمؤمنين إلى طرح أسئلة مشروعة عن جدواها. فهل يهتمّ الله فعلاً بما إذا كان الإنسان يأكل نوعًا من الأسماك ويمتنع عن غيره؟ حيال هذا النوع من الأسئلة، لا بدّ من ملاحظتين يجب إبداؤهما:

أولاً: أحكام الطاهر والنجس في العهد القديم، على أهميّتها، لم تعتبر يومًا مساويةً لأحكام الشريعة الكبرى، التي تعبّر عنها الوصايا العشر خصوصًا، والتي تتعلّق بسلوك الإنسان بإزاء الله والقريب.

ثانيًا: لقد نزع اليهود في العهد القديم، وذلك كسواهم من الشعوب المحيطة بهم في الشرق الأدنى، إلى تصنيف الخليقة بحسب ما يقرّب الإنسان من الله، أي الطاهر، وما يجعله غير أهل لعبادة الله، أي النجس.

ينتج من هذا أن أحكام الطاهر والنجس، رغم أنها تتناقض وما تعبّر عنه بوضوح قصة الخلق، في الفصل الأول من كتاب التكوين، أن الخليقة كلّها «حسنة» في عيني الرب، كانت تضطلع بوظيفة مهمة في إطار شرعة العهد القديم، هي حمل البشر على العيش في حضرة الله على الدوام، وذلك عبر مجموعة من الأحكام المرتبطة بحياتهم اليومية.

ولكن من البديهي أن هذه الطريقة في «تدريب» البشر على استدخال حضور الله في ما يأكلون ويشربون ويلبسون كانت لها محاذير لم تلبث أن ظهرت. فالبشر قد يجنحون إلى الاعتبار أن علاقتهم بالله تنتظم إذا ما

بكلمة. فدنا تلاميذُهُ وسألوهُ قائلين إصرفْها فإنَّها تصيحُ في إثْرِنا* فأجابَ وقالَ لهم لم أُرْسَلْ إلاَّ إلى الخرافِ الضالةِ من بيتِ إسرائيل* فأتَتْ وسجدتْ لهُ قائلةً أَغِثني يا ربُّ* فأجابَ قائلاً ليس حسنًا أن يؤخَذَ خبزُ البنينَ ويُلقى للكلاب* فقالتْ نعم يا ربُّ فإنَّ الكلابَ أيضًا تأكُلُ مِنَ الفُتاتِ الذي يسقطُ من موائدِ أربابِها* حينئذٍ أجابَ يسوعُ وقال لها يا امرأةُ عظيمٌ إيمانُكِ فليكُنْ لكِ كما أردتِ* فشُفيتِ ابنتُها من تلك الساعة.

تأمل

هي حادثة شفاء ومسامحة.تقترب الكنعانية من يسوع في نواحي صور وصيدا. ابنتها فيها شيطان وهي تتوسّل إلى الرب يسوع، تصرخ إليه. لكن يسوع لا يجيبها بكلمة، ويطلب التلاميذ منه أن يصرفها. فيعلن يسوع أنه لم يُرسَل إلا إلى الخراف الضالة من بيت إسرائيل. لكن المرأة لم تيأس بل ألحَّت في طلبها.

لنتعلّم من هذه المرأة المعلّمة كيف يجب علينا أن نثابر في الصلوات، بأي صبر، بأي تواضع، بأي تخشع. لنتعلّم أن لا نتراجع حتى وإن كنا غير

طبّقوا هذه الأحكام، معرضين عن الغاية الحقيقية التي من أجلها أُعطي الناموس لهم، بما فيه هذه الأحكام، أي العيش في حالة من الطهارة القلبيّة أمام الله والناس. ويزيد من هذه الخطورة أن الالتزام بقواعد الطاهر والنجس سهلٌ نسبيًا، فيما عيش محبة الله والقريب مسألة تقتضي جهادًا عظيمًا. والمسيحيون ليسوا بعيدين عن مثل هذا الاختبار. فالذين منهم يطبّقون قواعد الصوم يعرفون ملء المعرفة أن الامتناع عن بعض الأطعمة أمر يسير مقارنةً مع الصوم «الروحي» الذي يستوجب الغفران والرحمة. ولقد طفق أنبياء العهد القديم يلفتون إلى هذه النقطة بالذات في كل مرة كانوا يؤنّبون الشعب على تلهّيه بالأحكام الشكلية في علاقته بالله على حساب المسائل الكبرى كالعدل والرحمة: «رؤوس شهوركم وأعيادكم بَغَضَتْها نفسي. صارت عليّ ثقلاً مَلَلْتُ حَمْلَها. فحين تبسطون أيديكم أستُر عينيّ عنكم. وإن كثّرتم الصلاة لا أسمع، أيديكم ملآنة دمًا» (أش ١: ١٤-١٥)؛ «إني أُريد رحمةً لا ذبيحة، معرفة الله أكثر من محرقات» (هو ٦:٦).

على هذا الصعيد، نحا يسوع الناصري، مؤسس العهد الجديد، منحى أنبياء العهد القديم وصعّده. إذ نجده ينتقد العمى الروحي لدى كثر من معاصريه، بما فيهم بعض قادة اليهود، في تعاملهم مع شرائع السبت وقوانين الطاهر والنجس عمومًا حين يغدو تطبيق هذه الأحكام بالنسبة إليهم أهمّ من الموقف المنفتح على الآخر (مر٣:١٠-٦). ويدعو يسوع، في هذا الصدد، إلى موقف إنساني منسجم يأتي فيه السلوك على مستوى الظاهر متوافقًا مع ما يختزنه الباطن: «أنتم الآن أيها الفريسيون تنقّون خارج الكأس والقصعة وأما باطنكم فمملوء اختطافًا وخبثًا. يا أغبياء، أليس الذي صنع الخارج صنع الداخل أيضًا... ولكن ويل لكم أيها الفريسيون لأنكم تعشّرون النعنع والسذّاب وكلّ بَقْل وتتجاوزون عن الحقّ ومحبّةِ الله. كان ينبغي أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك» (لو ١١: ٣٩-٤٢). ويبلغ انتقاد يسوع غلوّ الطريقة التي كان بعض يهود عصره يتعلّقون فيها بأحكام الطهارة والنجاسة ذروته في قوله المأثور: «ليسَ شيءٌ من خارجِ الإنسانِ إذا دخلَ فيهِ يَقدرُ أن ينجِّسَهُ. لكنَّ الأشياءَ التي تخرجُ منهُ هي التي تنجِّسُ الإنسانَ» (مر ١٥:٧). في هذا القول يبيّن يسوع أن المرمى الأخير من أحكام الطاهر والنجس التي أتى العهد القديم بها هو بلوغ هذه المرحلة من الطهارة الداخلية، بحيث يمسي كل ما يتناوله الإنسان من الخارج «حسنًا» كما أراده الله في خلقه.

ولكن ماذا عن الصوم الذي نستعد لولوج بابه قريبًا. هل تشكّل قواعد الصوم المسيحي ارتدادًا إلى أحكام الطاهر والنجس في العهد القديم كما يذهب إليه البعض؟ إنّ تصنيف أنواع المأكل والمشرب الذي نعثر عليه في الصوم لا علاقة له بقاعدة الطاهر والنجس، بل هو مرتبط بخبرة الكنيسة أن التقليل من الطعام، على وجه العموم، والامتناع عن بعض المآكل، على وجه الخصوص، إنما يعين على اليقظة الذهنية والروحية، ما يدعم قدرة الإنسان على الصلاة المكثّفة المطلوبة في الصوم. يضاف إلى ذلك أن المسيحيين يمتنعون عن اللحم في الأصوام لما في ذلك من مصالحة مع الحيوان والطبيعة وفائدة تتأتّى من توفير مال الأطعمة الفاخرة بغية مساعدة الفقراء والمحتاجين. وتعبّر عودة المؤمنين في عيد الفصح إلى تناول كل أنواع المآكل والمشارب التي جاد الله بها

مستحقين، حتى وإن اتُّهمنا بالدنس بسبب خطايانا، بل أن نداوم التوسّل من كل قلبنا وبتواضع. سوف ننال طلبتنا من الله. لأن الرب عندما قال لها: أنتِ امرأة وثنية أو بالأحرى كلبٌ حقير رذيل وغير طاهر، ولا يليق بنا أن نأخذ خبزَ البنين ونعطيه للكلاب، أجابت المرأة متواضعة في نفسها ومعترفة بحقارتها وبدنسها. لقد اعتبرت نفسها غيرَ مستحقة للاشتراك ولتناول الخبز النازل من السماء (يو ٦:٣٣) بل كانت تتوسّل بحرارة لكي تُعطى الفتاتَ الساقط من مائدة أربابها.

والكلام هذا حكيمٌ في الحقيقة، كلّه تواضع! لأنها تقول: نعم إني من الوثنيين وأعترف بأني خاطئةٌ لكن بسبب محبّة الله للبشر غير الموصوفة وبسبب صلاحه غير المحدود سوف تَلقى الأمم منه عنايةً على غرار كل من خطئ إليه بطريقةٍ أو بأخرى.

ماذا فعل إذًا ذاك الذي يغفر الخطايا وقساوة القلب عند الذين يعترفون إليه كما يعلّمنا النبي في المزامير «قلت أعترف للرب بذنبي وأنت رفعتَ آثام خطيئتي» (مز ٣١:٥)؟ لقد تقبّل المرذولة، طهّر المدنّسة، شفى وقدّس الابنةَ ونفسَ أمّها. هذا كلّه مع المديح قائلاً: «حينئذ أجاب يسوع وقال لها: يا امرأةُ عظيم إيمانك ليكن لك كما تريدين. فشُفيت ابنتها

عليهم، بما فيها الخمر، عن موقف يسوع أن ما يخرج من فم الإنسان، لا ما يدخله، هو في نهاية المطاف ما يدنس. بيد أن شرط هذه الحرية المسيحية من أحكام الطاهر والنجس يبقى، انسجامًا مع موقف يسوع وأنبياء العهد القديم، مسلك التوبة الحقيقية التي الإنسان مدعو أن يمارسها داخل زمن الصوم وخارجه والتي تعرب عن ذاتها في محبة الآخرين وخدمتهم والتغاضي عن سيئاتهم.

إن أخطأ أخوك، فانصحه

«أيها الإخوةُ إن انسَبَقَ إنسانٌ فأُخِذَ في زلّةٍ ما فأصلِحوا أنتمُ الروحانيينَ مثلَ هذا بروحِ الوداعةِ ناظرًا إلى نفسِكَ لِئَلا تُجَرَّبَ أنتَ أيضًا» (غلا ٦:١).

بهذه الكلمات يحث الرسول بولس الروحانيين، الصالحين، من أهل غلاطية أن يندفعوا إلى إصلاح ونصح من جرّبهم الشرير وسقطوا في الخطايا، ومساعدتهم على الخروج من طريق الهلاك وسلوك طريق الحياة. نحن نحيا في الكنيسة عائلة واحدة، وجميعنا أعضاء في جسد واحد رأسه المسيح «وهو رأس الجسد الكنيسة» (كو ١:١٨). والأعضاء، كما في الجسد الواحد، يؤازرون بعضهم لكي يسيروا معًا طريق الملكوت. الأخ القوي يعين الأخ الأضعف، «احملوا بعضُكمْ أثقالَ بعضٍ وهكذا تمّموا ناموسَ المسيح» (غلا ٦:٢). والأخ الضعيف يقبل معونة ونصح الأخ الأقوى في الإيمان لعمل ما يوافق إرادة الله. وكل من ساعد في رد خاطئ له جزاء كبير لدى الله: «أيها الإخوةُ إن ضلَّ أحدٌ بينكُمْ عن الحق فردَّهُ أحدٌ فليعلمْ أنَّ من ردَّ خاطئًا عن ضلالِ طريقِهِ يُخلِّصُ نفسًا من الموتِ ويستُرُ كثرَةً من الخطايا» (يع ٥:١٩). كل هذا يتم بالصلاة والقربى والتعهد والنصح الأخوي المصلح، وقبول النصح.

يشرح الرب يسوع حياة الكنيسة وأصول تعامل الأخوة في الإيمان مع بعضهم فيقول: «وإنْ أخطأَ إليكَ أخوكَ فاذهبْ وعاتبْهُ بينكَ وبينَهُ وحدكما. إن سمِعَ منكَ فقدْ رَبِحْتَ أخاكَ وإن لم يسمعْ فخُذْ معكَ أيضًا واحدًا أو اثنين لكي تقومَ كلُّ كلمةٍ على فمِ شاهدَيْنِ أو ثلاثةٍ. وإن لم يسمعْ منهُم فقلْ للكنيسةِ. وإن لم يسمعْ منَ الكنيسةِ فليكُنْ عندكَ كالوثنيِّ والعشَّار» (متى ١٨:١٥–١٧). توضح هذه الآية إرادة الله بأن يحيا جميع أبناء الكنيسة بسلام مع بعضهم فيبتعدون عن كل مجافاة وخصومة، لا بل يعملون على حل كل ما يبرز من عقبات تُبعد الإخوة عن بعضهم. الإخوة يعاتبون بعضهم وينصحون بعضهم ساعين وراء السلام والإصلاح. من مقتضيات المحبة الأخوية أن تريد أخاك مُصلَحًا، أي أن يحيا في استقامة المسيح.

يقول الرب: «إن أخطأ إليك أخوك، فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما. إن سمع منك فقد ربحت أخاك». ما يلفت في هذه الآية تسمية المؤمنين إخوة، وبالتالي جميعنا أبناء عائلة واحدة. وكما في العائلة الواحدة يجوز أن يختلف الإخوة، هكذا أيضًا قد يخطئ أي فرد ضد غيره في الكنيسة. كل إنسان معرّض للخطأ عن قصد أو غير قصد. وكما في العائلة الواحدة أيضًا يجب أن يتكلم الأخوة مع بعضهم. لا بغض بين أبناء الملكوت. لذا عليهم أن يتكلموا مع بعضهم «على انفراد» أولاً، وبصراحة ومحبة المعاتبة والتوبيخ جزء منها: «لكن لا تحسَبوه كعدوٍّ بل أنذِروهُ كأخٍ. وربُّ السلامِ نفسُهُ

من تلك الساعة» (متى ١٥: ٢٨).

منحها السلطان ولم يبق بين الكلام والشفاء أيُ مجال. أمّا الإنجيلي مرقس فيقول: «فقال لها لأجل هذه الكلمة اذهبي. قد خرج الشيطان من ابنتك» (مر ٢٩:٧) أي من حيث أنك أذللتِ نفسَكِ واتّضعت إلى هذا الحدّ، بينما أنا رذلتك وأنت لم تيأسي. لم تضلّي عن كلمة التدبير بل أدركت عظمة محبتي للبشر واستمرَرْتِ في الصلاة حتى النهاية بكل رجاء. هذا لأنه كما قلنا: «للمتواضعين يُعطي الله نعمة» (أمثال ٣٤:٣) و«كل من اتّضع ارتفع» (متى ١٢:٢٣) «وأما المتواضعونَ فيُعطيهمْ نعمةً» (يع ٦:٤) «وكل من يطلب يجد ومن يقرع يُفتح له» (متى ٨:٧).

طبعاً هذه المثابرة لا تتم بدون إيمان كبير. يلاحظ الواحد أن التواضع مرتبط دائمًا بالإيمان بالمسيح ويتزايد معه. عندما قال قائد المئة للمسيح بتواضع: «يا رب لست مستحقًا أن تدخل تحت سقف بيتي»، قال الرب لتابعيه: «الحق أقول لكم لم أجد مثل هذا الإيمان في إسرائيل» (متى ٨:٨- ١٠). هكذا فإن التواضع يليق بالمؤمنين فقط والإيمان بالمتواضعين.

القديس

غريغوريوس بالاماس

يعطيكمُ السلامَ» (٢ تسا ١٥:٣-١٦). طبعًا الوداعة والمحبة شرطان أساسيان لمن يريد أن يعاتب وينصح: «وعبدُ الربِّ لا يجبُ أن يخاصِمَ بل يكونُ مترفقًا بالجميعِ صالحًا للتعليم صبورًا على المشقّاتِ مؤدّبًا بالوداعةِ المقاومينَ عسى أن يعطيهم الله توبةً لمعرفةِ الحقِّ فيستفيقوا من فخِّ إبليسَ إذ قد اقتَنَصَهُمْ لإرادتِهِ» (٢ تيمو ٢٤:٢-٢٦). إذًا، همّ الأخ الناصح أن يصل أخوه الخاطئ إلى معرفة الحق وبالتالي الخلاص. الأخ يسعى لأن يربح أخاه. والربح لا يعني هنا أن يحافظ الملتزم على صداقته مع الخاطئ، ولكن أن يتوب الخاطئ ليبقى عضوًا في الجماعة التي أوشك بتصرفه أن يهجرها أو يفصل نفسه عنها. هذا هو الربح الحقيقي للأخ الناصح، وإذا لم يكن هذا هدفه فهو ضال أيضًا. الرسول بولس يقول إلى أهل فيليبي أن الموت ربح له إذ يقرّبه من المسيح، «ولكن إن كانتِ الحياةُ في الجسدِ هي لي ثمرُ عملي فماذا أختارُ لستُ أدري. فإنّي محصورٌ من الاثنين. لي اشتهاءٌ أن أنطلقَ وأكونَ مع المسيح. ذاكَ أفضلُ جدًا. ولكن أن أبقى في الجسدِ ألزَمُ من أجلكُمْ. فإذْ أنا واثقٌ بهذا أعلمُ أني أمكُثُ وأبقى مع جميعِكُمْ لأجلِ تقدُّمِكُمْ وفرحِكُمْ في الإيمان» (في ٢٢:١-٢٥).

قد يرفض الخاطئ نصح أخيه ومحبته. عندها يقول الرب «وإن لم يسمع فخُذ معك أيضًا واحدًا أو اثنين لكي تقوم كل كلمة على فم شاهدَين أو ثلاثة». طبعًا المقصود أن هذين الاثنين أو الثلاثة هم من المؤمنين الصالحين المعروفين في الجماعة الكنسيَّة. لا يسمح الرب للغرباء بأن يتدخلوا فيما بين المؤمنين، بل وينذرهم على لسان رسوله بولس من رفع قضاياهم أمام الغرباء: «أيتجاسرُ منكُمْ أحدٌ له دعوى على آخر أنْ يحاكَمَ عندَ الظالمينَ وليسَ عندَ القديسينَ. ألستُمْ تعلَمونَ أنَ القديسينَ سيَدينونَ العالَمَ. فإن كانَ العالَمُ يُدانُ بكُمْ أفأنتمْ غيرُ مستأهلينَ للمحاكم الصغرى. ألستمْ تعلَمونَ أننا سنَدينُ ملائكةً فبالأولى أمورَ هذه الحياة» (١ كور ١:٦-٣).

وحدهم الذين ملأ المسيح قلبهم لهم الحق في التوسط والمصالحة بين المؤمنين، لأنهم وحدهم قادرون على قول كلمة الحق الصحيحة. همهم فقط إرضاء مشيئة الله وليس إرضاء أي فريق من البشر. هدفهم بنيان الكنيسة.

قد يعاند الأخ الخاطئ وساطة واحد أو اثنين، عندها يوصي الرب: «قل للكنيسة». لا يريدنا الرب أن نستسلم في محاولات الإصلاح، فالمحبة لا تعرف هدوءًا إلا حين يستقر سلام الرب في قلوب الجميع. «قل للكنيسة»، للعائلة الكبيرة، والكنيسة مجتمعة هي المسؤولة عن حماية الضعفاء المجرّبين، وهي لها وحدها حق إصدار الحكم، أو سلطان الحل والربط. الكنيسة تحكم على قاعدة ما أوصى به الرب.

«وإذا لم يسمع للكنيسة، فليكن عندك كالوثني والعشار». أي أن الكنيسة تفصله عن الشركة وتعتبره من الذين يحتاجون إلى البشارة من جديد والصلاة الدائمة.

أخيرًا، لا بد من ملاحظة أساسية، أن من يعتبر نفسه صالحًا ونصوحًا، يجب أن يعي أنه يخطئ أيضًا، ولا يمكن له أن يصلح غيره إلا بمقدار محبته للآخر. المحبة وحدها تبني وليس التشنّج.

بالامكان **الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:**

www.quartos.org.lb